دراسة تاريخية

في أساطير الجاهلية

للأستاذ / محمد عبدالواحد حجازي

من الحقائق التاريخية أن شبه الجزيرة العربية لم تكن في جاهليتها بمعزل عما حولها من الأمم الحضارية العريقة والدويلات التي أسهمت إسهاماً حضارياً ملحوظاً ترك أثره في الميراث الحضاري للإنسانية.. لقد كانت صلة العرب بمن حولهم من شعوب وأمم صلة بعيدة تضرب في أغوار التاريخ القديم على إمتداد عصوره وتبدل أطواره واختلاف أحواله. ولقد جاء ذلك الاتصال على أربع صور متمايزة وإن كانت في نفس الوقت تنطوي على نوع من التداخل العضوي الذي لا يمكن تجاهله أو التهوين من أثره. وصور الاتصال الأربع هي:

١ ـ اتصال الهجرة. ٢ ـ اتصال الولاء السياسي. ٣ ـ اتصال التبادل التجاري.
٤ ـ الاتصال الديني والثقافي.

● أولاً: اتصال الهجرة..

أما اتصال الهجرة وهو أمعن الاتصالات في القدم، فقد جاء في صورة الموجات البشرية التي كانت تنزح من أواسط شبه الجزيرة العربية كلما ضاقت بها سبل العيش واضطرتها مضانك العسر إلى التماس شيء من الرخاء. ومن ثم كانت هجرتها إلى الشمال حيث الأراضي الخصبة الفياضة بخيراتها والأنهار الجارية والينابيع الثرارة. وقد كانت تلك الجماعات المهاجرة والتي لم تنقطع هجرتها على مدار التاريخ وحتى مجيء الإسلام الحنيف، كانت تكون أصلاً من أصول الأمم الحضارية التي كانت بين النهرين (الدجلة والفرات) من بابلين وأشوريين وكلدانيين، وكذلك الكنعانيين في فلسطين.. وإذ تكون الأصول العربية من المكونات الأساسية للبناء الاجتماعي لتلك الأمم، فإنه لمن البديهي ألا تنفصم العروة التي كانت تربطهم بأبناء عمومتهم في الجنوب، بل تظل قائمة بينهما، فإن لم تكن مباشرة فلا أقل من أن تكون غير مباشرة، وذلك بأن يتناقل الجنوبيون أخبارهم وماصاروا إليه وما دانوا به من آلهة وما اعتقدوا فيه من خوارق وأساطير.. ومن ثم كان دخول الأساطير البابلية والآشورية والكلدانية إلى شبه الجزيرة العربية شائعاً بين القبائل العربية القديمة، وكلما تطاولت الأيام بتلك الأساطير زادت غرابة على غرابة بفضل محاولات الإغراب والاختلاق، التي كان يضيفها الرواة أو المتناقلون لها..

● ثانياً: اتصال الولاء السياسي..

وفي هذا النوع من الاتصال نجد أن المسيرة الحضارية قد حققت تطوراً جديداً في تكوين الممالك والإمبراطوريات، فقد اندثرت أمم وباد أهلها، وظهرت ممالك أخرى أكبر وأوسع وأشد بأسا وأرقى حضارة، فقد ظهرت الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية والمملكة اليمنية والمملكة الحبشية. ولما كانت القبائل العربية موجودة على مشارف الحدود الفارسية منذ زمن بعيد ولم تنقطع المناوشات بينها وبين الإمبراطورية الفارسية رغم سطوتها وجبروتها، فإن عواهلها وجدوا أنه من الضروري أن يؤمنوا

حدودهم الغربية من هجمات القبائل العربية، فكان أن أقاموا للعرب المقيمين على تلك الحدود إمارة الحيرة، وتم ذلك في عهد الإمبراطور الفارسي سابور الأول (٢٤٠م) الذي عين عمرو بن عدى أميراً عليها بشروط، أهمها أن يقوم بحماية الحدود الفارسية من المغيرين عليها من العرب مقابل إعفائه من الضرائب. ويقابل هذا الحلف إمارة الغساسنة التي أنشأها الرومانيون من عرب شمال شبه الجزيرة العربية لحماية حدودهم، ولتكون سداً أمام غارات عرب الجنوب، وكذلك الغارات الفارسية التي كانت تقع بين حين وآخر. إلا أن هذه الإمارة سرعان ما انهارت وضعف شأنها عندما انتصر الفارسيون على الرومان وانتزعوا منهم أورشليم ودمشق (٦١٣ - ٦١٤م)..

● ثالثاً: اتصال التبادل التجاري

لقد كان لشبه الجزيرة العربية شأن عظيم في التجارة العالمية في العصور القديمة، حيث قام العرب بالدور الرئيسي لتسهيل وتأمين التبادل التجاري بين الشرق حيث الهند والصين وجزر المحيط الهندي، وبين الغرب حيث الدولة الرومانية والشام وفلسطين ومصر ودول البحر المتوسط. ولقد حدد مسار التجارة العالمية التي أمسك العرب بميزانها طريقان رئيسيان؛ فحيث يبدأ الاثنان من حضرموت وهي المركز العالمي لتجارة الشرق، فإن الأول يتجه شمالاً إلى البحرين الواقعة على الخليج العربي ويتابع مسيرته الشمالية حتى صور، ومنها إلى الدول المطلة على البحر المتوسط شرقية كانت أم غربية.. ويخرج الثاني من حضرموت ويتخذ سبيله بجوار ساحل البحر الأحمر، متجنبا عائقين طبيعيين خطرين: أولهما صحراء نجد الشديدة الحرارة، وثانيهما هضاب الشاطىء الشديدة الوعورة حتى يصل إلى مكة المركز الرئيسي للتجارة العالمية، وذلك بفضل استقرارها وقداستها وقدرة أهلها على تأمين قوافل التجارة.. ولهذا كان اعتماد الدولة الرومانية في تجارتها وتصريف شئونها الاقتصادية العالمية على مكة؛ ومن ثم فقد أنشأت بها بيوتا مالية، وإن كانت تلك البيوت تقوم بالتجسس على شئون الدول الأخرى، ولاسيما فارس واليمن والحبشة عن طريق عملائها وعيونها..

ولقد أظهر قادة مكة وزعماؤها، لاسيما زعماء البيت القرشي حنكة سياسية ودهاء تجارياً كبيراً سواء في ترويج تجارتهم أم في تأصيل أمنهم واستقرارهم، حتى تظل مكة كما عرفها العالم حرماً آمناً للتجارة العالمية. فقد عقد هاشم بن عبد مناف (٤٦٤م) مع الإمبراطور الروماني ومع أمير غسان: «معاهدة حسن جوار».. كما حصل من الإمبراطور على مرسوم يبيح للقرشيين أن يتنقلوا بين ربوع الشام للتجارة أو الزيارة، بغير أن يهددهم أحد في أمنهم وسلامتهم. وفضلاً عن هذه المعاهدة الرومانية الغسانية فقد عقد عبد شمس مع النجاشي إمبراطور الحبشة معاهدة تجارية، وكذلك عقد كل من نوفل والمطلب «معاهدة حسن جوار» مع إمبراطور الفرس، ومعاهدة تجارية مع دولة الحميريين في اليمن.

● الاتصال الديني والثقافي..

ولم يكن الولاء السياسي مجرد ولاء سياسي خضع فيه اللخميون في الحيرة أو الغسانيون في حوران والبلقاء لكل من الإمبراطوريتين العظيمتين الفارسية أو الرومانية. وكذلك ما كان التبادل التجاري العالمي قائماً على التجارة وحدها لا يتعداها إلى غيرها من شئون الحياة واهتمامات الأحياء.. لقد كانت الهجرات المتعاقبة، وكذلك الولاء السياسي والتبادل التجاري مدخلاً إلى إهتمامات الفكر والوجدات، وإلى ما ترجوه الضمائر من مسائل الفكر والثقافة والعقيدة فضلاً عن تطلعات الدوافع النفسية إلى متع المعيشة ومترفات المدنية. ومن ثم فإن عرب إمارة الحيرة كانوا خير رسل للحضارة الفارسية بعقيدتها وعلمها وثقافتها؛ ولا غرو في ذلك فقد بلغوا شأواً كبيراً في معرفتهم بالمجوسية أو الزرادشتية العقيدة الرئيسية للفارسيين. ومما يرويه ابن قتيبة؛ أن المجوسية كانت شائعة في قبائل تميم، ومنهم زرارة بن عدس وابنه حاجب، كما كانت شائعة بين قبائل البحرين بعامة، وقد جاء في ابن الأثير أن عرب البحرين كانوا يأخذون بشريعة المجوس في الزواج وأن لقيط بن زرارة تزوج ابنته على هذا الشرعة وقد سماها باسم فارسي هو دختنوس.

وإذا كان عرب الحيرة هم همزة الوصل بين الفرس وشبه الجزيرة العربية، فقد

صاروا من ثَمَّ الناشرين الأولين للثقافة الفارسية والحضارة الفارسية بفضل ما أتقنوه من آدابهم وقصصهم وأساطيرهم.. بل إن منهم من بلغ درجة كبيرة في إتقان اللغة الفارسية كتابة وترجمة فيذكر ابن خلدون أن عدى بن زيد (الحيري) "كان من تراجمة أبرويز (ملك الفرس).. وأن أباه زيدا كان شاعراً خطيباً وقارئاً كتب العرب والفرس".. وأكثر من هذا فإنه يمكن أن يقال: إن عرب الحيرة كانوا الرسل الأوائل للآداب اليونانية والعلوم اليونانية؛ وذلك أن الحكومة الفارسية في عهد هُرمز الأول أقامت مجموعة من المستعمرات في مواقع متفرقة على نهر الفرات، ليعمل بها الأسرى الرومانيون؛ وقد أفاد عرب الحيرة كثيراً من أولئك الأسرى، إذ كان منهم من هو مثقف بالثقافة اليونانية وآدابها، كما كان منهم عدد كبير من المهندسين والأطباء الذين يفوقون في فنهم الفارسيين أنفسهم.. ولا جدال في أن تنعكس ثقافة عرب الحيرة التي حصلوها من الفرس واليونان على المجتمع العربي في مواقعه بداخل شبه الجزيرة العربية. أما اتصال العرب بالحضارة اليونانية الرومانية، فقد كان عن طريقين كما ذكرنا من قبل وهما: أولاً: إمارة الغساسنة التي نشأت تحت سيطرة الرومان.. ثانياً: اتصال العرب بالرومان اتصالاً مباشراً عن طريق رحلاتهم إلى الشام. وقد كان ذلك سبباً في اعتناق العرب الغساسنة للمسيحية بفضل أفواج المسيحيين الذين هربوا من القسوة الرومانية متجهين إلى الجنوب. وبذلك عرف العرب أطرافاً من الأساطير والأمثال والآداب المسيحية واليونانية، وإن كانت الأساطير اليونانية غير واضحة المعالم في الثقافة العربية الجاهلية آنذاك.

ولقد كان لمكة بفضل موقعها التجاري العالمي وكمدينة كبرى من مدن القوافل تأثيرها في الفكر العربي الجاهلي والثقافة العربية الجاهلية، بل والديانات العربية الجاهلية. فقد كان لكل من الفارسيين والرومانيين والأحباش واليمنيين (الحميريين) معابد أو دوراً للعبادة يغشونها من آن لآخر.. ولا ريب في أن يتأثر العرب بما يدور في تلك الدور وما يقال فيها أو يحكي عن آدابها وأساطيرها ومعتقداتها.. يضاف إلى هذا أن الكعبة ذاتها كانت تضم بين جدراتها نصبا وتماثيل لديانات تلك الأمم، لأنها كانت حرماً آمنا لكافة الآلهة والآلهات، فكان لأهل كل ديانة الحق في أن يحجوا إلى آلهتهم أو أصنامهم وهم آمنون..

أما عن دور اليهود في شبه الجزيرة العربية فإن الكثيرين من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، يعطونهم دوراً يفوق المسيحية وسائر الأديان الأخرى التي عرفتها شبه الجزيرة. وتأتي خطورة هذا التمييز الساذج في حقيقته إلى أنه يبوىء التأثير اليهودي مكانة لا يستحقها بحال من الأحوال.. فصحيح أن اليهودية انتشرت إلى حد ما في مدن شبه الجزيرة العربية كالمدينة وخيبر.. كما أن ذا نواس عاهل اليمن تهود كما تهود الكثيرون من اليمنيين ممالأة له.. إلا أن هناك أربعة أمور يجب أن تنتبه إليها جيداً حين نبحث الدور الفكري والأخلاقي لليهود في شبه الجزيرة العربية وهي: **أولاً**، أن القبائل اليهودية التي هاجرت إلى شبه الجزيرة العربية ـ قبل الإسلام ـ لم تكن من حيث العقيدة والفكر والثقافة على درجة تؤهلها لأن تكون صاحبة رسالة دينية لها آدابها وأخلاقها.. **ثانياً**، أن دورهم الرئيسي الذي مارسوه بحنكة وبراعة هو دور التآمر بالدس والوقيعة بين القبائل العربية، ليفوزوا بالمغنم المادي الذي يسعون إليه.. **ثالثاً**، أن الكهانات اليهودية أورثت أبناءها الأصلاء عقيدة الشعب المختار. ومن ثم فقد نظر اليهود إلى العرب الذين تهودوا على أنهم يهود من الدرجة الثانية، ولم يسلم من تلك النظرة يهود الدولة الحميرية على عهد ذي نواس نفسه.. **رابعاً**، أن ما قيل عن الأساطير اليهودية والآداب اليهودية التي تأثر بها عرب الجاهلية هو مجرد اختلاق لا أساس له من الواقع التاريخي المطور. ذلك أن الأساطير اليهودية في مسائل الخلق والجنة والنار وخوارق الشياطين والجن لم تكن سوى «توليفة» يهودية من الأساطير المصرية والبابلية والآشورية والفارسية عرفها عرب شبه الجزيرة في جاهليتهم وان تفاوتت درجة المعرفة من حيث العمق والتنوع باختلاف مواقع المدن العربية من مواطن الحضارة الفارسية أو الرومانية أو الحميرية في اليمن.. ومن ثم فإن ما قام به اليهود نحو الأساطير والقصص التي اطلعوا عليها في فترات أسرهم وسبيهم، لم يزد عن كونه عملية تهويد لتلك الأساطير أو صياغتها بما يتفق والثوب اليهودي.. ويتضح هذا من الأساطير التي روجها اليهود الذين أسلموا مثل كعب الأخبار ووهب بن منبه.

مكانة الأساطير العربية بين الأساطير العالمية

ومما يدعو إلى التساؤل، بل ويوجب التساؤل، هو مكانة الأساطير العربية بين الأساطير العالمية التي تكاد تنحصر في الأساطير المصرية واليونانية والهندية والبابلية والآشورية واليابانية، وإن لم يكن لليابانية أدنى تأثير في الأساطير العربية. فأساطير هذه الحضارات كان لها دورها في الآداب والفنون والثقافات بل والأخلاق على مسار التاريخ الحضاري للإنسانية حتى اليوم.. فمازال الأدباء والشعراء وكتاب الروايات والمسرحيات ينهلون من الأساطير اليونانية والفارسية والمصرية إما بعرض الأسطورة عرضاً فنياً جديداً، أو بتفسيرها وفق رؤية جديدة أو نظرة معاصرة أو باتخاذها رمزاً يحتمي به الكاتب لتأييد موقف اجتماعي أو لمناهضة موقف اجتماعي أو بدعة أخلاقية.

فلماذا إذن لم يحتفظ العرب بأساطيرهم التي ابتدعوها أو نقلوها من بني عمومتهم في الشرق أو في الغرب، وفي الشمال أو في الجنوب؟.. لماذا بقيت على حالها متناثرة في بطون كتب الأدب والسير والمغازي؟.. هل هي أساطير فجة ساذجة بالنسبة إلى الأساطير اليونانية مثلاً وهي الحافلة بالوقائع والأحداث والمعاني أو الهواجس الإنسانية؟.. أم لأنها لم تكتب في صورة ملاحم أسطورية لاسيما تلك المتعلقة بوقائع العرب وأيامهم العظيمة؟.. أم لأنها لم تكن ذات أصول بعيدة في التاريخ الجاهلي للعرب؟.. أم لعدم وجود وحدة دينية ذات معان إنسانية عامة كما هو الشأن في عقيدة إيزيس وأوزوريس المصرية، أو في عقيدة براهما الهندية، أو عقيدة أهورا مزدا الفارسية، أوزيوس اليونانية؟..

قد يكون لذلك كله أثره في ضعف الأسطورة العربية عن الذيوع والانتشار، وربما كان ما يحتاجه بعضها من طقوس وشعائر ومراسيم مما يبهظ العربي في تكاليفه، أو مما لا يصبر عليه العربي ويضيق به خياله، أو يضيق به ذوقه عن الاستساغة والقبول.. وهو المترحل المتنقل طلباً للماء والمرعى؛ بل وطلبا للحرية والانطلاق من القيود، وما أشد قيود الكهانات الحضارية وأقساها تكبيلاً للحرية...

إلا أن السبب الحاسم هو مجيء الإسلام الحنيف بعقيدة التوحيد المنزه تنزيهاً كاملًا عن الأنداد والشركاء وذلك لاستصفاء العقل والضمير والشعور من كل لوثات الأساطير وما تمور به من خرافات وضلالات.. فالقرآن الكريم يدفع الذين لا يؤمنون بالكتاب الكريم بالزيغ والضلال فيقول سبحانه: "يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين" (٢٥ سورة الأنعام).. والقرآن الكريم يسجل اعتراف الكافرين على أنفسهم بالضلال فيقول سبحانه: "وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وَدّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا" (٢٣ سورة نوح).. ثم يهدم القرآن الكريم الديانة الكوكبية بأسرها فيقول سبحانه: "لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن" (٣٧ سورة فصلت).. ثم يهدم القرآن الكريم الديانات التي تؤله الإنسان؛ فيقول سبحانه: "قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" (٦٤ سورة آل عمران).. ثم يهدم القرآن الكريم تأليه المخلوقات الغيبية والمتصلين بها كالنبيين فيقول سبحانه: "ولا يأمُرَكُم أن تتخذوا الملائكةَ والنبيين أرباباً أيأمُرُكم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون" (٨٠ سورة آل عمران)..

وهكذا حرم القرآن الكريم تحريماً مطلقاً كل صور الشرك المجسدة في الآلهة التي عرفها العرب أو التي سمعوا عنها.. ومن ثم فقد وضع الفيصل النهائي الحاسم بين الكفر والإيمان.

أساطير الجاهلية

قبل أن نعرض للأنواع الرئيسية لأساطير الجاهلية، فإنه يجب أن نضع في اعتبارنا ثلاثة أمور هامة هي: أولًا، أن من الأساطير مادارت حول ما اصطنعته الشعوب آلهة رئيسية لها، وهذا بطبيعة الحال مما رفضه الإسلام رفضاً قاطعاً.. ثانياً، أن من الأساطير ما دارت حول ما اتخذته الشعوب آلهة أو أنصاف آلهة بغير أن تتعبد لها في كثير من الأحوال، وذلك كآلهة الفنون وآلهة الزراعة والمراعي والبحار والعواصف؛ وغيرها من المظاهر الطبيعية والجسدية والنفسية. وهذا أيضاً مما رفضه الإسلام

رفضا قاطعاً.. ثالثاً، أن من الأساطير ما دارت حول المظاهر الطبيعية والإنسانية والغيبية، مما لا يؤلهها الإنسان، ولكنه بوحى من خياله يحاول أن يثبت لها نوعاً من خوارق العادات، إما لأنه يتمنى أن لو تحققت تلك الخواطر فهى من ثَمَّ نوع من الإسقاط الخيالي الجموح، أو لأن سذاجة خياله صورت له أنه يمكن أن يكون لتلك الظواهر مقدرة غيبية على تحقيق ما يعجز عنه. وهذه الأساطير هي التي ظلت باقية في بطون كتب الأدب العربي.. ويمكننا تقسيم تلك الأساطير إلى أربعة أنواع رئيسية ١ ـ الأساطير الفلكية. ٢ ـ الأساطير الحيوانية. ٣ ـ الأساطير الغيبية. ٤ ـ الأساطير الإنسانية.

الأساطير الفلكية

والأساطير الفلكية المتعلقة بالكواكب والنجوم لها دور كبير في حياة العرب رغم قلتها، جاء في الجزء الأول من كتاب «أخوان الصفاء» عن أوائل ساعات الأيام: "أعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة فأول ساعة من يوم الأحد للشمس، وأول ساعة من يوم الاثنين للقمر، وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ، وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد، وأول ساعة من يوم الخميس للمشترى، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة، وأول ساعة من يوم السبت لزحل".. وكانت العرب تسمى الأيام في الجاهلية على النحو التالي: "الأحد أول، والاثنين أهون، والثلاثاء جبار، والأربعاء دبار، والخميس مؤنس، والجمعة عروبة، والسبت شبار".. وقال شاعرهم:

أؤمل أن أعيش وأن يومي
بأول أو بأهون أو جبار
أو المردى دبار فإن أفته
فمؤنس أو عروبة أو شبار

ولقد حظى القمر بأسطورة طريفة خلعت عليه صورة إنسانية تقربها بعض الشيء من الأساطير اليونانية.. وفي هذه الأسطورة يخبر القمر عن أحواله التي يكون عليها إبان الشهر.. فمما جاء فيها:

"قيل: ما أنت ابن ليلة؟ قال: رضاع سخيلة حل أهلها برميلة.. قيل: فما أنت لليلتين؟ قال: حديث أمتين ذواتي إفك ومين.. قيل: فما أنت لثلاث؟ قال: حديث فتيات يجتمعن من شتات.... ثم قيل: فما أنت لثلاث عشرة؟ قال: قمر باهر يعشى عين الناظر.. قيل: فما أنت لأربع عشرة؟ قال: مقتبل الشباب أضيء بين السحاب.. قيل: فما أنت لخمس عشرة؟ قال: ثم التمام ونفدت الأيام.... ثم قيل: فما أنت لخمس وعشرين؟
قال: انا في تلك الليالي لا قمر ولا هلال.. قيل: فما أنت لست وعشرين؟ قال: دنا الأجل وانقطع الأمل".

الأساطير الحيوانية

وتدور الأساطير الحيوانية حول الحيوانات التي كانت موجودة في شبه الجزيرة العربية أو التي يمكن للخيال أن يخترع أشكالها ويعطيها من الأسماء ما يتفق وتلك الأشكال...

* فأسطورة الأرنب والثعلب تروى أن الأرنب عثرت على تمرة غير أن الثعلب استطاع بدهائه أن يسرقها منها ويأكلها. ولم تجد الأرنب بدأ من أن تذهب هي والثعلب إلى الضب ليحكم بينهما.. فقالت الأرنب: يا أبا الحُسَيْل ! فقال: سميعا دعوت. قالت أتيناك لنحتكم إليك فاخرج إلينا.. قال: في بيته يؤتي الحكم. قالت: إني وجدت تمرة. قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب مني فأكلها. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت. قالت: فلطمني. قال: حرانتصر. قالت: فاقض بيننا. قال: حدث الرعناء بحديثين فإن أبت فاربَعْ (أي أمسك وكف)..

* **ومن الطيور الأسطورية طائر الهام (المفرد هامة)**.. وقد تخيل العرب أنها هي نفس الإنسان تملأ جسمه كأنها روحه، فإذا قتل أو مات يظل هذا الطائر يحوم حول قبره يصرخ صرخات موحشة رعيبة.. قال شاعر جاهلي عن أصحاب الفيل:

سلط الطير والمنون عليهم
فلهم في صدى المقابر هام

ويزعم المتداولون لهذه الأسطورة من الجاهليين، أن طائر الهام يظل يكبر ويكبر حتى يصير في شكل البومة وحجمها، ولا يسكن سوى: "الديار المعطلة والنواويس، وحيث مصارع القتلى وأجداث الموتى"، حيث تصبح صيحاتها المشئومة المرعبة.. وإذا كانت الهامة هي نفس الميت أو روحه، فإنها تظل عيناً له عند أهله وذويه، تخبره بما يقولونه عنه أو يصنعونه بعده.. قال الصلت بن أوية لبنيه:

هامى تخبرني بما تستشعروا
فتجنبوا الشنعاء والمكروها

فلما جاء الإسلام الحنيف أبطل هذه الأسطورة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا هام ولا صفر".. ومع ذلك فقد بقيت للأسطورة بعض الأصداء عند الشعراء يتمثلون بها كما يتمثل الشعراء المحدثون بأسطورة يونانية أو مصرية، فيقول توبة ابن الحمير في ليلى الأخيلية:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح

ومن أساطير الهام ماروى عن حاتم الطائي فقد مر بقبره رجل يكنى أبا البخترى ومعه نفر من قومه. فبات أبو البخترى يناديه: يا أبا الجعد أقرنا. فقال قومه له: مهلاً، تكلم رمة بالية؟ قال: إن طيئا تزعم أنه لم ينزل به أحد قط إلا قراه... وناموا فلما كان آخر الليل قام أبو البخترى مذعوراً فزعا ينادي: واراحلتاه؟ فقال له أصحابه: ما بدالك؟ قال: خرج حاتم من قبره بالسيف وأنا أنظر حتى عقر ناقتي. قالوا له: قد والله قراك. فظلوا يأكلون من لحمها شواء وطبيخا حتى أصبحوا ثم أردفوه وانطلقوا سائرين. فإذا راكب بعير يقود آخر قد لحقهم فقال: أيكم أبو البخترى؟ فقال أبو البخترى: أنا ذلك. قال: أنا عدى بن حاتم وأن حاتما جاءني الليلة في النوم ونحن نزول وراء هذا الجبل، فذكرت شتمك إياه وأنه قرى أصحابك براحلتك، وأنشدني يقول في شعره:

أبو البخترى لأنت امرؤ
ظلوم العشيرة شتامها
أتيت بصحبك تبغى القرى
لدى حفرة صدحت هامها
أتبغى لي الذم عند المبيت
وحولك طي وأنعامها؟
فإنا سنشبع أضيافنا
ونأتي المطى فنعتاقها

وقد امرني أن أحملك على بعير مكان راحلتك فدونكه...

ولقد كان لهذه الأسطورة صداها الواسع بين العرب وقد ذكرها سالم بن زرارة الغطفاني في مدحه عدى بن حاتم وذلك حيث يقول:

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل
لان شب حتى مات في الخير راغبا
به تضرب الأمثال في الشعر ميتا
وكان له إذ ذاك حيا مصاحبا
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به
ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

* ومن الحيوانات الأسطورية حيوان الغول وقد نسجت حولها أقاصيص وأساطير كثيرة، حفلت بها كتب الأدب العربي. ويبدو من أوصافه التي وصف بها أنه حيوان غريب الشكل شائه الخلقة، يصيب من يراه بنوع من الذهول والرعب فيضله عن سبيله.. وقد ذكر المسعودي في كتابه: «مروج الذهب»: "أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان مشوه لم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج منفرداً في نفسه وهيئته توحش من مسكنه فطلب القفار وهو يناسب الإنسان والحيوان البهيمي في الشكل".. كما ذكر العرب أيضاً أن رجلي الغول تشبه رجلي العنز. ويبدو أن هذا الحيوان الشاذ كان كثير

الظهور في القفار المنقطعة والطرق التي يقل السير فيها ونستنتج ذلك مما كان يرتجزه العرب تعوذا من الغول، فقد كان الواحد منهم يقول:

* وزعم الجاهليون ـ ولازال الناس إلى اليوم يزعمون ـ أن للجن قدرة على الاطلاع على الغيب، فيخبر عما سيقع للمرء من أحداث.. جاء في كتاب: «آكام المرجان في أحكام الجان» أن أحد الأعراب قال: "خرجت مع نفر من قريش نريد الشام فنزلنا بوادٍ يقال له وادي عوف فعرسنا واستيقظت في بعض الليل فإذا أنا بقائل يقول:

يا رجل عنز انهقى نهيقا
لن نترك السبب والطريقا

واعتقد الجاهليون أن الغول لا تظهر إلا في الليالي الحالكة السواد، وكذلك في الأوقات التي يندر فيها السير والتجول، ففي تلك الليالي تبعث من رأسها بنيران وأضواء فيتوهم السائر أنه قريب من أحد مضارب الأعراب فيتجه إليها، وبذلك يضل عن سبيله.. قال أبو المطراب عبيد بن أيوب الأنصاري:

فلله در الغول أي رفيقة
لصاحب قفر خالف وهو معبر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت
حوالي نيرانا تلوح وتزهر

ومن أجل احتيالها على الذين يظهرون لها من بني آدم، فقد كانت تتظاهر بأنها ترعاهم وتحميهم من غوائل الطريق شأنها في ذلك شأن الكلب الأمين؛ قال أبو المطراب:

وحالفني الوحوش على الوفاء
وتحت عهودهن ويا البعاد
وغولا قفرة ذكراً وأنثى
كان عليهما قطع النجاد

ولكنها سرعان ما توردهم الحتوف، حيث يهلكون في الوديان أو بين رءوس الجبال حيث

تسوقهم إليها وهم غير واعين كأنهم مسحورون.. ولهذا فقد ضرب المثل بالغول في التقلب وقلة الوفاء.. قال كعب بن زهير الصحابي:

فما تدوم على حال تكون لها
كما تلون في أثوابها الغول

* وإلى جانب الغول فهناك السعلاة وهي قريبة الشبه منها؛ قال أبو المطراب:

وساخرة منى ولو ان عينها
رات ما رات عيني من الهول جنت

أبيت بسعلاة وغول بقفرة
إذا الليل وارى الجن فيها أرنت

ومع هذا فهي تختلف عن الغول من حيث الساق وشكل العين؛ قال أحد الشعراء:

. وحافر عنز في ساق مدملجة
وجفن عين خلاف الإنس بالطول

* وجاء النسناس ليكمل مجموعة الحيوانات الشاذة، والجاهليون يقيمون حول هذا الحيوان بعض الأساطير بل وينطقونه بأحاديث تجسد شطحات خيالهم.. يقول شبيب بن شيبة بن الحارث التميمي: "قدمت الشحر (بحضرموت)، فنزلت على رأسها فتذاكرنا فقال: صيدوا لنا منها فلما أن رجعت إليه مع بعض أعوانه إذ أنا بنسناس منها فقال لي النسناس: أنا بالله وبك. فقلت لهم: خلوه، فخلوه. فلما حضر الغذاء قال: هل اصطدتم منها شيئا؟ قالوا: نعم ولكن خلاه ضيفك. قال: استعدوا فإنا خارجون في قنص.. فلما خرجنا إلى ذلك في السحر خرج منها واحد يعدو وله وجه كوجه الإنسان وشعرات في ذقنه ومثل الثدى في صدره ومثل رجلي الإنسان رجلاه وقد أنظ به كلبان وهو يقول:

الويل لي مما به دهاني
دهري من المهموم والأحزان
قفا قليلا أيها الكلبان
واستمعا قولي وصدقاني

إنكما حين تحاربانِي
ألفيتما حضرا عنانِي
ولولا سباقي ماملكتماني
حتى تموتا أو تفارقاني

لست بخوار ولا جبان
ولا بنكس رعش الجنان
لكن قضاء الملك الرحمن
يذل ذا القوة والسلطان

قال: فالتقيا به فأخذاه...".

ورغم أن هذه الأسطورة موضوعة بعد مجيء الإسلام الحنيف بدليل وجود كلمة «الرحمن» التي لم يعهدها الأدب الجاهلي، إلا أنها تدل على أن حكايات النسانيس كانت شائعة عند الجاهلين، ولاسيما عند عرب حضرموت والأحساء واليمن وعمان حيث تكثر النسانيس والقردة..

الأساطير الغيبية

إلًا أن الأحاديث التي حظيت بجانب كبير من خيال العرب وأسمارهم ومجالسهم، كانت أحاديث الجن وغيرها من المخلوقات الشيطانية والحيوانات الصغيرة التي يتخيلون أن لها اتصالاً بالشياطين والجن والمردة.. ولقد حاول دعاة اليهود ولاسيما وهب بن منبه أن يختلقوا أصلاً إسرائيلياً لتلك الأساطير الجنِّية، فزعم أن التوراة تقول: "إن الله تعالى خلق الجان من نار السموم، وخلق منه زوجته كما خلق حواء من

آدم.. وأن الجان غشيها فحملت منه وأنها باضت إحدى وثلاثين بيضة.. وأن بيضة من تلك البيض تفلقت عن قطربة وهي أم القطارب وأن القطربة على صورة الهرة. وأن الأبالس من بيضة أخرى منهم الحارث أبو مرة وأن مسكنهم البحور.. وأن المردة من بيضة أخرى مسكنهم الجزائر.. وأن الغيلان من بيضة أخرى مسكنهم الخلوات والفلوات.. وأن السعالى من بيضة أخرى سكنوا الحمامات والمزابل.. وأن الهوام من بيضة أخرى سكنوا الهواء في صورة الحياة ذوات الأجنحة يطيرون هنالك.. وأن من بيضة أخرى الدواسق، وأن من بيضة أخرى الحماميص»..

* فمن أساطير الجان التي نستبين فيها الدس اليهودي، وكان اليهود هم وحدهم الذين لهم صلة أسطورية بالجان، ما روى عن أمية بن أبي الصلت في رحلته إلى الشام وكان يصحبه نفر من ثقيف.. فلما هموا بأن يتناولوا عشاءهم، وقد مدوا سفرتهم إذ طلعت عليهم عظاية (دويبة ملساء تشبه البرص)، فتقززوا منها، وصدفت نفوسهم عن الأكل، ورفعوا السفرة بعد أن رماها أحدهم بحصوات فنفرت وهربت.. فلما هموا باعتلاء إبلهم للرحيل خرجت لهم عجوز شمطاء من وراء كثيب تتوكأ على عصا، فقالت:

ما منعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة التي جاءتكم عتيمة (تصغير عتمة ثلث الليل الأول)؟.. فقالوا: وما أنت؟ قالت: أنا أم العوام، أما ورب العباد لتفترقن في البلاد.. وضربت بعصاها الأرض ثم قالت: «أطيلي إيابهم ونفرِّي ركابهم».. فكأنما أصاب الإبل مس من الشيطان فهاجت وماجت ونفرت مذعورة في الوادي.. "فجمعناها آخر النهار ومن غد فلم نكد. فلما أنخناها لنُرحلها طلعت علينا العجوز بعصاها وقالت كقولها بالأمس، ففعلت الإبل كفعلها بالأمس.. فلم نجمعها إلا الغد عشيا. فلما أنخناها لنُرحلها أقبلت العجوز وقالت كقولها في اليومين السابقين فتفرقت الإبل. فقلت

لأمية: اين ماكنت تخبرنا عن نفسك؟ (أي عن معرفته بكتب الأقدمين)؛ فقال: اذهبوا أنتم في طلب الإبل ودعوني.. فتوجه إلى الكثيب الذي كانت العجوز تأتي منه حتى علاه وهبط منه إلى وادٍ فيه كنيسة وقناديل، وإذا رجل مضطجع معترض على بابها وإذا آخر أبيض الرأس واللحية فلما رأى أمية قال: أنك لمتبوع فمن أين يأتي صاحبك؟ ثم قال: ما حاجتك؟.. فحدث بحديث العجوز. فقال: صدقْتَ وليست بصادقة، هي امرأة يهودية

من الجن هلك زوجها منذ أعوام وإنها لا تزال تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت. فقال أمية: وما الحيلة؟.. قال: اجمعوا أظهركم (ما يحمل عليه من الإبل)، فإذا جاءتكم ففعلت كما كانت تفعل، فقل: سبعٌ من فوق وسبع من أسفل، باسمك اللهم. فلن تضركم. فرجع أمية إلى رفاقه فجمعوا أظهرهم، فلما أقبلت العجوز قال لها ما أمره به الشيخ فلم تضرهم. فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت: قد عرفت صاحبكم ليتبيْضَنَّ أعلاه وليَسْودن أسفله. فأصبح أمية وقد برص في عذاريه واسود أسفله".

* ومن الجن ما كان يصادق الإنسان ويرشده إلى بر الأمان حينما يرى أنه ضل طريقه ويوشك أن يهلك.. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: "سمعت شيخا من العرب قد أناف على المائة يقول: إنه خرج وافداً على بعض ملوك بني أمية قال: فسرت في ليلة صهاكية حالكة كأن السماء قد برقت نجومها بطرائق السحاب وضللت الطريق فتلجت وادياً لا أعرفه فأهمتني نفسي بطرحها حتى الصباح فلم آمن عريف الجن فقلت: أعوذ برب هذا الوادي من شره وأستجيره في طريقي هذا وأسترشده. فسمعت قائلاً يقول من بطن الوادي:

تيامن تجاهك تلق الكلا
تسير وتأمين في المسلك

قال: فتوجهت حيث أشار إلى وقد أمنت بعض الأمن فإذا أنا بأقباس نار تلمع أمامي في حللها كالوجوه على قامات النخيل السحيقة، فسرت وأصبحت بأوشال، وهو ماء لكلب قرب برية دمشق"..وإذا كانت هذه الأسطورة قد قيلت بعد عهد بني أمية إلا أن الأصل الجاهلي واضح فيها كل الوضوح..

*** ومن الجن ما يغرى الإنسان ويفتنه بجماله وسحر عزفه وعذوبة ألحانه؛ فعن منصور بن يزيد الطائي الصامتى قال: "رأيت قبر حاتم طيء، ببقة وهو أعلى جبل يقال له الخابل، و إذا قدر عظيم من بقايا قدور حجر مكفأة في ناحية من القبر من القدر التي كان يطعم فيها الناس.. وعلى يمين قبره أربع جوار من**

حجارة وعلى يساره أربع جوار من حجارة كلهن صاحبة شعر منشور محتجرات على قبره كالنائحات عليه لم ير مثل بياض أجسامهن وجمال وجوههن مثلهم الجن على قبره ولم يكن قبل ذلك والجواري بالنهار كما وصفنا.. فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه ونحن في منازلنا نسمع ذلك إلى أن يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر سكتن وهدأن، وربما مر المار فيراهن فيفتتن بهن فيميل إليهن عجباً بهن فإذا دنا منهن وجدهن حجارة"..

* ومن الجن ما هو على جانب من الوفاء والمروءة والقدرة على وصف الدواء لمن هو في حاجة إليه.. فمن ذلك ما روي عن النضر بن عمرو الحارث فقد قال: "إنا كنا في الجاهلية إلى جانب غدير فأرسلت ابنتي بصحيفة لتأتيني بما فأبطأت علينا وطلبناها فأعيتنا فيئسنا منها.. قال: والله إني جالس ذات ليلة بفناء مظلتي إذا طلع على شبح فلما دنا مني إذا ابنتي. قلت: ابنتي؟ قالت: نعم ابنتك. قلت: أين كنت أي بنية؟ قالت: أرأيت ليلة بعثتني إلى الغدير، أخذني جنى فاستطار بي فلم أزل عنده حتى وقع بينه وبين فريق من الجن حرب فأعطي الله عهداً إن ظفر بهم أن يردني عليك.. فإذا هي قد شحب لونها وتمرط شعرها وذهب لحمها وأقامت عندنا فصلحت فخطبها بنو عمها فزوجناها. وقد كان الجنى جعل بينه وبينها أمارة إذا رابها ريب أن تدخن له.. وأن ابن عمها ذاك عَيَّبَ عليها وقال جنية شيطانه. ما أنت بإنسية.. فدخنت فناداه مناد: مالك ولهذه؟ لو كنت تقدمت إليك لفقأت عينك، رعيتها في الجاهلية بحسبى وفي الإسلام بديني.. فقال له الرجل: ألا تظهر لنا لنراك؟ قال: ليس لنا ذاك. إن أبانا سأل لنا ثلاثا: أن نرى ولا نرى، وأن نكون بين أطباق الثرى، وأن يعمر أحدنا حتى تبلغ ركبتاه حنكة ثم يعود فتى.. فقال ابن عمها: ألا تصف لنا دواء حمى الربع؟ قال: بلى. قال: ما رأيت تلك الدويبة على الماء كأنها عنكبوت؟ قال: بلى! قال: فخذها ثم اشدد على بعض قوائمها خيطا من عهن فشده على عضدك اليسرى. ففعل.. قال: فكأنه نشط من عقال"..

* وزعم الجاهليون - ولازال الناس إلى اليوم يزعمون - أن للجن قدرة على الاطلاع على الغيب، فيخبر عما سيقع للمرء من أحداث.. جاء في كتاب: «أكام المرجان في أحكام الجان» أن أحد الأعراب قال: "خرجت مع نفر من قريش نريد الشام فنزلنا بوادٍ يقال

له وادي عوف فعرسنا واستيقظت في بعض الليل فإذا أنا بقائل يقول:

ألا ملك النساك غيث بن فهر
وذو الباع والمجد التليد وذو الفخر

فقلت في نفسى: والله لأجيبنه،
فقلت:

ألا أيها الناعي أخا الجود والفخر
من المرء تنعاه لنا من بني فهر

فقال:

نعيت جدعان بن عمرو أخا الندى
وذا الحسب القدموس والمنصب القهر

فقلت:

لعمرى لقد نوهت بالسيد الذي
له النصل معروفاً على ولد النضر

فقال:

مررت بنسوان يخمشن أوجها
صياحا عليه بين زمزم والحجر

فقلت:

متى؟ إن عهدي به منذ عروبة
وتسعة أيام لغرة ذا الشهر

فقال:

ثوى منذ أيام ثلاث كوامل
مع الليل أخرى الليل أو وضح الفجر

فاستيقظ الرفقة فقالوا: من تخاطب؟ فقلت: هذا هاتف ينعى ابن جدعان، فقالوا: والله

لو بقي أحد بشرف أو عزة أو كثرة مال لبقي عبدالرحمن بن جدعان.. ولئن كانت كلمة «عبدالرحمن» تدل على أن الأسطورة موضوعة في الإسلام إلا أن أصداء الخيال الجاهلي واضحة بينة...

* ومن الجن ما هو شديد العداوة للإنسان فهو حين يراه يستدرجه إلى معركة يصرعه فيها، وربما قضى كل منهما على الآخر.. وذلك مثلما حدث بين جن اسمه «شق»، وكان على صورة إنسان وبين أعرابي اسمه علقمة بن صفوان.. فقد خرج علقمة في إحدى الليالي ليتحصل على مال كان له بمكة؛ فما إن وصل إلى مكان يعرف «بحائط حرمان» حتى ظهر له الجن المعروف باسم «شق» فخاطب علقمة بن صفوان بقوله:

علقم إني مقتول
وإن لحمى ماكول
أضربهم بالمسلول
ضرب غلام مشمول
رحب الذراع بهلول

فقال علقمة:

شق مالي ومالك
أغمد عنى منصلك
تقتل من لا يقتلك؟

فقال شق:

علقم غنيت لك
كيما أبيح معقلك
فاصبر لما قد حم لك

فضرب كل منهما صاحبه فخرا ميتين. . .

* وأحيانا يشفق الجن على حمق الإنسان فلا يصرعه وإن هاجمه واعتدى عليه فمن الأساطير ما تروى أن رجلاً من كلب اسمه «مُرَيْن»، كان له أخوان أكبر منه، أحدهما

اسمه مرارة والثاني اسمه مرة. وكان مرة لصاً فاتكا حتى أن عشيرته لقبته «بالذئب». . وحدث أنه خرج ذات يوم للقنص قريباً من جبل يقال له «أُبْلَى»، وبينا هو يسعى وراء صيدة اختطفه الجن ووصل الخبر إلى أهله. . فما كان من مرة إلا أن انطلق في إثر أخيه لينقذه من براثن الجن فلما وصل إلى نفس المكان اختطفه الجن هو الآخر. . وقد وقع كل هذا بينما كان مُرَيْن بعيداً عن عشيرته فلما قدم وبلغه ما أصاب أخويه: "أقسم ألا يشرب خمراً ولا يمس رأسه غِسْلٌ حتى يطلب بأخويه". فأخذ قوسه وأسهمه وأسرع إلى جبل أُبْلَى حيث هلك أخواه وظل مقيما به سبعة أيام وعينه لا تقع على شيء وفي اليوم الثامن رأى ظليما (نوع من الظباء) فرماه بسهمه فأصابه ثم أخذه ونزل به من الجبل. . فلما آذنت الشمس بالأفول بصر بشخص قائم على ضخرة ينادى:

يا أيها الرامي الظليم الأسود
تبت مراميك التي لم تُرشَد

فأجابه مرين:

يا أيها الهاتف فوق الصخرة
كم عبرة هيجتها وعبرة
بقتلكم مرارة ومرة
فرقت جمعا وتركت حسرة

فاختبأ الجن قطعا من الليل، في أثنائها أصابت مرين حمى فذهب في النعاس، فجاءه الجن وحمله إلى مملكته، فلما انتبه مرين قال له الجن: ما أنامك وقد كنت حذرا؟ فقال: الحمى أضرعتنى (أي غلبتني على أمري).. فلما كان في وجه الصبح أخذه الجن إلى حيث يعرف طريقة إلى عشيرته وخلى سبيله؛ فقال مرين بعد أن وصل إلى قومه:

الا من مبلغ فتيان قومي
بما لاقيت بعدهم جميعا
بأني قد وردت بنى حُبَيٍّ
وعاينت المخاوف والقطيعا
غزوت الجن أطلبهم بثاري
لأسقيهم به سما نقيعا

تعرض لي ظليم بعد سبع
فارميه فاتركه صريعا
وكنت إذا القروم تعاورتني
جريء الصدر معتزما منيعا
بنى لي معشري وجدود صدق
بذروة شامخ بيتا رفيعا
وعزا ثابتا وظلال مجد
ترى شم الجبال له خضوعا

* ومن الأساطير ما تحاك حول ما يصيب الأمم من أحداث جسام وكوارث تؤدي إلى تدميرها وزوال شأنها وتشتت أهلها في الآفاق. . وعماد هذا النوع من الأساطير الغيبية أمران: ١ ـ تأويل الأحداث الجارية. ٢ ـ تأويل الأحلام.

وكان هذا التأويل في عرف الجاهليين لا يتوافر إلا للكاهنات. . ولعل أسطورة انهيار ملك الحميريين باليمن وتفرق أهلها بين أصقاع شبه الجزيرة العربية هي خير ما نقدمه في هذا المقام. .

وخلاصة هذه الأسطورة أن «طريفة» الكاهنة رأت في نومها حلما مزعجا، فقد رأت أن ثمة سحابة انتشرت فوق أرض اليمن وقد تفجرت بالرعود والبروق والصواعق التي أحرقت كل ما صادفها فوق الأرض. . فلما قامت طريفة من نومها مذعورة مفزعة صارت تقول: "ما رأيت مثل اليوم. قد أذهب عني النوم. رأيت غيما أبرق وأرعد طويلاً. ثم أصعق فما وقع على شيء إلا أحرق. فما بعد هذا إلا الغرق". . وحين شاهد أهلها ما أصابها من رعب أخذوا يطمئنونها ويخففون عنها؛ فلما هدأت ثائرتها سألت عن الملك عمرو بن عامر فعلمت أنه في جلسة أنس وطرب في حديقته وبين جواريه الحسان. فانطلقت إلى قصر الملك يتبعها وصيفها «سنان». .

وحدث عند خروجها من باب بيتها أن وقعت عينها على ثلاث مناجد (دواب تشبه اليرابيع يكن بأرض اليمن) منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن. فلما رأت طريفة فعل اليرابيع جلست هي الأخرى ووضعت يدها على عينها وقالت

لوصيفها: إذا ذهبت هـذه المناجـد عنا فـأعلمني . . فلما ذهبت أعلمها فـاتخذت سبيلها مسرعة إلى القصر ولما اقتربت من حديقته اعترضتها قناة صغيرة خرجت منها سلحفاة انقلبت على ظهرها عندمـا بلغت الطريق وحـاولت أن تعود إلى وضعهـا مستعينة بـذنبها فكانت تثير التراب فوق بطنها وجنبها وتقذف بالبول من شـدة تقلبها. وانتـظرت طريفـة حتى عادت السلحفاة إلى الماء بعد أن نجحت في أن تنقلب على بطنها. . وبعدها دخلت الحديقة إلى حيث مجلس عمرو وكان ذلك في ساعة الظهيرة والحر شديد والشجر يتمايل بعنف بغير أن تكون هناك ريح تثيـره. . فلما رآها عمـرو صرف الجـواري حياء منهـا ثم قال: هلمي ياطريفة إلى الفـراش. . فاتخـذت سمت الكهانـة ووقارهـا وطفقت تقول: والنور والظلماء. والأرض والسـماء. إن الشجر لتـالف. وسيعود المـاء لما كـان في الدهـر السالف. . فقال عمرو: من خبرك بهذا؟ قالت: أخبـرني المناجـد بسنين شـدائد يقـطع فيها الولد والوالد. قال: ما تقولين؟ قالت: أقول قول الندمان لهفا، قد رأيت سلحفـا، تجرف التراب جرفا، وتقذف بالبول قذفا، فدخلت الحـديقة فـإذا الشجر يتكفـا. . قال عمرو: وماترين ذلك؟ قالت: هي داهية ركيمة، ومصائب عـظيمة، لأمـور جسيمة. . قال: وما هي؟ ويلك. . قالت: أجل، إن لي الويل، ومـا لك فيهـا من نيل، فـلي ولك الـويل ممـا يجيء به السيـل. . فذهـل عمرو من تلك النبـوءات الرعيبـة وقال: مـا هذا يا طريفـة، قالت: هـو خطب جليـل، وحزن طـويل، وخلف قليـل، والقليل خـير من تركه. . قال عمرو: ومـا علاقـة ذلك؟ قـالت: تذهب إلى السـد فإذا رأيت جـرذا يكثر بيديه في السـد الحفر ويقلب بـرجليه من الجبـل الصخر فـاعلم أن النقر عقـر وأنه وقـع الأمر. . قال: وما الأمر الـذي يقع؟ قـالت: وعد من الله نـزل فبغيرك يـا عمرو فليكن الثكل. .

وذهب عمرو إلى السد ليتـأكد من صـدق نبوءة طـريفة، وفعـلاً وجدهـا صادقـة فقد شاهد الجرذ وهو يعبث بالسد ويقلب برجليه صخرة ما يقلبهـا خمسون رجـلاً. . فلما عاد إلى طريفة ليخبرها بما شاهد قال:

أبصـرت أمـراً عـادنـي منـه ألـم
وهـاج مـن هـول بـرح السقـم

من جرز كفحل خنزير الأجم
أوتيس مرم من أفاريق الغنم
يسحب صخرا من جلاميد العدم
له مخاليب وانياب قضم
ما فاته سحلاً من الصخر قصم
كانما يرعى حظيراً من سلم

فقالت له طريفة: إن من علامة ما ذكرت لك أن تجلس في مجلسك بين الجنتين ثم تأمر بزجاجة فتوضع بين يديك فإنها ستمتلىء بين يديك من تراب البطحاء من سهلة الوادي ورمله، وقد علمت أن الجنان مظلة ما يدخلها شمس ولا ريح... فلما وقع ذلك لعمرو ذهب إلى طريفة وقال: ومتى ترين هلاك السد؟ قالت: فيما بينك وبين السبع سنين.

قال: ففي أيها يكون؟ قالت: لا يعلم ذلك إلا الله تعالى ولو علمه أحد لعلمته ولا يأتي عليك ليلة فيما بينك وبين السبع سنين إلا ظننت هلاكه في غيرها أو تلك الليلة..

وصار عمرو يفكر في سبيل للنجاة من الكارثة المقبلة وأخيراً استطاع بالاحتيال والمخادعة أن يغرى قومه بشراء ممتلكاته.. ولما اكتشف الناس سر خطته واعتزامه الهرب بأمواله قبل أن يدهم البلاد سيل العرم فيهلكها ذهبوا إليه ليشاوروه في مصيرهم، وكان عنده أخوه عمران الكاهن الذي نصحهم بضرورة الجلاء قبل أن يحل خطب السيل؛ وكان مما قاله لهم: "قد رايت أنكم ستمزقون كل ممزق، ويباعد بين اسفاركم، وإني اصف لكم البلدان فاختاروا أيها شئتم فمن أعجبه منكم صفة بلد فليصر إليها..."؛ "... ومن كان يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل ـ وهي المدينة ، وكان الذين سكنوها الأوس والخزرج ـ.. ومن كان يريد منكم الخمر والخمير والديباج والحرير والأمر والتدبير فليلحق ببصر وحفير ـ وهي أرض الشام، فكان الذين سكنوها غسان ـ.. ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيول العتاق والكنوز والأرزاق فليلحق بالعراق ـ وكان الذين لحقوا بالعراق مالك بن فهم الأزدي وولده"..

الأساطير الإنسانية

ونقصد بالأساطير الإنسانية تلك التي يكون أبطالها من بني آدم؛ فلا تدخل للجن أو للشياطين أو لأية مخلوقات أخرى بالرمز أو بالتأويل.. ومن هذه الأساطير ما كان أصلها يوناني أو فارسي أو هندي وذلك بحكم الصلات التي كانت بين شبه الجزيرة العربية وبين الأمم الحضارية التي أسلفنا الإشارة إليها.. ومع هذا فهناك أساطير إنسانية ذات أصل عربي خالص وإن صقلها مؤلفوها بصقال حضاري تظهر فيه رحابة الرؤية وطرافة المعاني.. ومن هذه الأساطير: أسطورة الزباء، وأسطورة الخورنق والسدير، وأسطورة يوما النعمان...

* أسطورة الزباء..

والزباء امرأة اشتهرت بالدهاء والخبث كما اشتهرت بالجمال الذي استهوى أمراء شبه الجزيرة العربية.. ومن الروايات ما جعلت الزباء عربية ذات نسب عربي أصيل، فقيل إنها ابنة عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر.. ومن الروايات ما جعلتها رومانية تتكلم العربية..

وكانت الزباء ملكة على الشام والجزيرة (المنطقة المحصورة بين دجلة والفرات).. ولثروتها وجمالها وقوة دولتها فقد تقدم لخطبتها كثيرون من أمراء العرب ومنهم جذيمة الأبرش.. ويبدو أنها لم تكن تستريح إليه لأنها كانت تراه خطراً عليها، ولذلك فإنها عزمت على التخلص منه، فكتبت إليه حين عرض عليها الزواج تقول: "إني فاعلة ومثلك من يرغب فيه فإذا شئت فاشخص إلى".. فجمع جذيمة أصحابه وعرض عليهم الأمر فأشار البعض عليه بقبول الدعوة، بينما حذره البعض منها وكان منهم صديقه قصير بن سعد الذي قال له: "الرأي الرجيح عندي أن تكتب إليها فإن كانت صادقة أقبلت إليك وإلا لم تقع في حبائلها".. ولكن جذيمة اتبع هواه وأصر على السير إليها فقال قصير بن سعد حين رأي إصراره: «لا يُطاع لقصير أمر».. فصارت مثلا.. وانطلق جذيمة إلى مدينة الزباء وعلى مشارفها رأى جندها الكثيف فساورته المخاوف وقال: أي قصير ما الرأي، أشر على؟.. فقال قصير: أن لقيتك الكتائب فحيتك بتحية الملك وانصرفوا أمامك فالمرأة صادقة.. وإن هم أخذوا بجنبيك ووقفوا دونك فالقوم

منعطفون عليك فيما بينهم وبين جنودهم فاركب «العصا» (فرس كانت إلى جانبه)، فإنها لا تدرك ولا تسبق".. فلما رأى قصير أن الجند قد أحاطوا به ركب هو «العصا» ونجا بنفسه.. وأخذ الجنود جذيمة وأدخلوه على الزباء التي استقبلته بسخرية خبيثة.. وامرت جندها فأجلسوه على كرسى كانت قد أعدته له ثم طعنته بسيفها فقطعت عروق ساقه اليسرى وظل دمه ينزف وتتلقاه هي في طست من الذهب وقالت له في تهكم ـ وهو في سكرات الموت ـ: "اي جذيمة لا تضيعن من دمك شيئا فإني إنما بعثت إليك لأنه بلغنى أن دمك شفاء من الخبل".. فقال جذيمة: "وما يحزنك من دم أضاعه أهله".. ومات..

اما قصير فإنه لما ذهب إلى قومه أورد الخبر على عمرو بن عبد الجن التنوخي بالحيرة وقال له: "اطلب بثأر ابن عمك وإلا سبتك العرب"؛ فلم يحفل عمرو بما حدث. فذهب قصير إلى عمرو بن عدى خال جذيمة فطلب منه مثلما طلب من عمرو بن عبد الجن، فقال عمرو بن عدى: "وكيف لنا بها وهي أمنع من عقاب الجو؟ فقال قصير: أما إذا ابيت فإني جادع انفى واذنى ومحتال لقتلها جهدى فأعنِّى وخلاك ذم. فقال له عمرو: انت ابصر وعليّ معونتك".. فجدع انفه، فقيل : لأمر ما جدع قصير أنفه، وصارت مثلا.. واخيراً تمكن قصير من الدخول على الزباء فقالت له حين فوجئت به: من انت؟ فقال: انا قصير، لا ورب المشارق والمغارب ما كان على وجه الأرض بشر كان انصح لجذيمة ولا أغش لك منى حتى جدع عمرو بن عدى أنفى وأذنى ، فعرفت أنى لا اكون مع أحد هو اثقل عليه منى معك.. فقالت: أي قصير، نقبل منزلتك ونصرفك في بضائعنا.. فكان ان اتجر بمالها، ولكى يبرهن لها على امانته وحنكته في التجارة وأنه يستطيع ان يكسب من المال ما لا تتوقعه فإن عمرو بن عدى أمده بالمال الذي يجعلها تثق فيه وفي سداد رأيه..

وفي يوم قال لها: إنه ليس من ملك إلا وهم يتخذون في مدائنهم أنقابا (أنفاقا)، تكون لهم عدداً (اي يهربون منها عند الهجوم عليهم).. فقالت له: أما إني قد فعلت ذلك.. قد نقبت سرداباً وبنيته من تحت سريري هنا حتى اخرج من تحت الفرات إلى سرير اختي رحيله... ثم خرج قصير بعد أن أوهمها بأنه ذاهب في رحلة تجارية جديدة.. ثم قصد عمرو بن عدى وأطلعه على سر الزباء؛ فركب عمرو في الف رجل على الف بعير في

«جوالق». فلما أشرفت القافلة على قصر الزباء سبقها قصير إلى الزباء وقال لها: اصعدى حائط مدينتك وانظرى إلى مالك وتقدمى إلى بوابك فلا يتعرض لشيء من أموالنا فإني قد جئت بمال صامت..

ولما كانت تأمنه وتثق في قوله فإنها صعدت وفعلت ما أمرها به.. فلما شاهدت الجمال وهي تمشى متثاقلة قالت:

ما للجمال مشيها وئيدا
أجندلاً يحملن أم حديدا؟
أم صرفانا بارداً شديدا
أم الرجال جثما قعودا؟

ودخلت الجمال المدينة وكانت سرباً طويلاً مما أضجر حارس البوابة فأخرج سيفه وطعن أحد الجوالق فسمع منه صوتا فقال: بشتا... بشتا، وهي باللغة النبطية: في الجوالق شر..

وخرج الرجال من الجوالق كالمردة يقتلون ويدمرون ويحرقون ويسبون.. فلما رأت الزباء ما حل بها حاولت الهرب من النفق فرأت قصيراً على بابه شاهراً سيفه؛ فحاولت الرجوع فأبصرت عمرو بن عدى يهم لطعنها بسيفه فمصت خاتمها وكان به سم فماتت لساعتها وقالت وهي تجود بنفسها: بيدى لا بيد عمرو.

تلك دراسة تاريخية موجزة في أساطير الجاهلية.. لعلها تعطى صورة صادقة لأهم سمات الأساطير الجاهلية وما تشى به من معان وما توحى به من دلالات إنسانية واجتماعية لا تقل في مضمونها عن الأساطير العالمية...

● المراجع:

١ ـ مروج الذهب: المسعودي.
٢ ـ الفاخر: أبو طالب المفضل بن سلمة.
٣ ـ الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني.

٤ ـ الأمالي: أبو علي القالي.
٥ ـ فجر الإسلام: أحمد أمين.
٦ ـ حياة محمد: د/محمد حسين هيكل.
٧ ـ إبليس: عباس محمود العقاد.
٨ ـ مطلع النور: عباس محمود العقاد.
٩ ـ أثر العرب في الحضارة الأوربية: عباس محمود العقاد.
١٠ ـ علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب: تأليف: د. لاسى وليرى، ترجمة د/وهيب كامل.